في الذكرى السادسة لرحيله

محمد شكري ..فاته أن يكون ملاكاً وخبزه الحافي كان للمهمشين إداماً

تمر هذه الأيام دون ضجيج، الذكرى السادسة لرحيل الكاتب والأديب المغربي الكبير محمد شكري، صاحب «الخبز الحافي» ذائع الصيت، و كتب أخرى كثيرة ظلمت، توزعت بين الرواية والسير الذاتية، وعرت جوانب خفية في المكان الذي كان طنجة العاجة بالحياة، والزمان الذي كان النصف الثاني من القرن العشرين، زمن ما بين الحربين الثانية والباردة، والفاصل بين الحدثين الاستعمار والاستقلال، والدال على الأثرين الجوع وبعض الشبع.

على حافة الغرب سار محمد شكري صغيرا، حافي القدمين يبحث عن «خبز حاف»، أي بلا إدام، فقط لسد الرمق، كما سار طيلة حياته الأدبية الحافلة والعاصفة على حافة الغرب، تتراءى له أنوار اسبانيا من بيته على سطح إحدى عمارات طنجة الدولية، دون أن يفكر لحظة في الرحيل إليها أو إلى سواها، فقد كافح شكري ليكون «كاتبا طنجاويا» كما وصف نفسه ذات مرة، مخلصا لهذه الذات أولا، و متعلقا ثانيا بحياة المهمشين والمعدمين والمطرودين الذين اعتبرهم باستمرار عائلته الأثيرة، و في سجله عشرات من مواقف العطف عليهم والإحسان لهم، فضلا عن الكتابة بإسهاب وإبداع عنهم.

تعلم شكري القراءة والكتابة كبيرا، على مشارف العشرين، و قرر أن يصبح كاتبا عندما أعجبته أناقة أحدهم، وقعت عليه عيناه في مقهى «سنترال» في قلب المدينة العتيقة، فسأل عنه وأخبر بأنه يمتهن الكتابة، مثلما حدث الأستاذ رشيد تفرسيتي أحد عشاق طنجة. وقبل أن يحقق إرادته في أن يكون كاتبا، وأي كاتب، امتهن شكري كل مهن القاع، حمالا في السوق ونادلا في المقاهي والحانات ومساعدا في أعمال وضيعة غذت خياله و صقلت عودته و قوت جهاز مناعته إزاء نكبات الدهر وصروفها.

لم يتزوج محمد شكري، لكنه عشق كثيرا من النساء وهام بهن، بل إنه ظل عاشقا إلى آخر رمق في حياته. وقد قيل عن هذه الحياة الخاصة الكثير، لكن أغلب ما قيل بدا حسب ما شهد به المقربون والمتخصصون في أدب وسيرة الرجل، محض خيال أو افتراء، تماما كما هو الافتراء الكبير الذي اعترض أشهر كتبه «الخبز الحافي»، الذي سعى متدينون محافظون إلى منع نشره وتوزيعه سنوات طويلة، بحجة أنه دعوة للسفور والانحلال وإساءة بالغة لصورة طنجة، فيما كانت الرواية كشفا لشكيزفرينيا مزمنة ما زال العرب هواة للاعتلال بها، و إشادة بطنجة لم تنل مثلها منذ رحلة ابن بطوطة التي ضاعت أسفارها في حادثة بحرية مفاجئة.

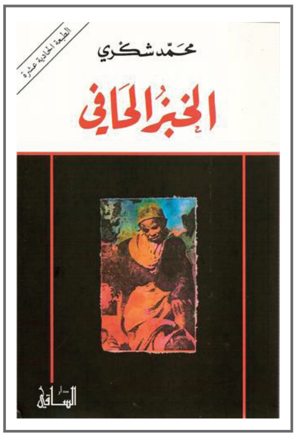

لقد صاحب شكري العديد من الأدباء والكتاب الغربيين الذين عشقوا طنجة وأقاموا فيها حياة أو جزءا منها، كبول بولز وتينسي ويليامز وجان جينيه، وقيل عن هذه الصحبة الكثير، والرأي أن في الصلة أبعاد معروفة وأخرى ما تزال مستحقة للبحث، لكن الأمر في نهاية المطاف لن يخرج عن المألوف في الصلات الإنسانية، مزيج من وفاء وغدر، و إيثار وأنانية، و غيرة واعتراف بالجميل، لكن الثابت أيضا أن شكري لم يكن الطرف الضعيف فيها، وأن اعتداد الرجل بنفسه وقدراته وحتى هويته الوطنية لم يكن قليلا، و أن زعم البعض بأن الرجل كان مجرد «عميل أدبي وفكري للغرب»، لم يكن سوى اعتقاد خيال مريض وحسد أعمى.

لم يكن محمد شكري حسب من شهد على عصره، محبا للحديث في السياسة، وكان يؤثر بالمقابل الحديث عن الأدب، لكنه في المناسبات القليلة التي يختار أن يكون فيها سياسيا، لا يتردد في التأكيد على انتمائه للعالم العربي والإسلامي، و اعتراضه على الكثير من السياسات الغربية، وكان بشكل عام معارضا للحروب ذات النكهة الامبريالية، وفي لحظات البوح كان يقول عن نفسه بأنه مجرد «مسلم عاص».

و دون تكلف كان محمد شكري أيضا منسجما مع ذاته في المسألة اللغوية، فهو ما فتئ يؤكد على أن لغته الأم أدبيا هي العربية، فقد كان يكتب بها ثم يترجم إلى اللغات الأجنبية، وكان يفضل الحوار والحديث بها في الندوات واللقاءات العامة، أما لغته الأم بيولوجيا فهي الأمازيغية، وقد كان شكري شديد الاحتفاء بأهله الأمازيغ حين يلتقيهم، ولم يكن يتردد أيضا في الدفاع عن القضية الأمازيغية باعتبارها قضية ثقافية بالدرجة الأولى، ولا مناص من حلها عاجلا أو آجلا.

كانت ميزة محمد شكري الفريدة، قدرته الفائقة على التعري، في ظل ثقافة تهوى ستر العورات وإنكار السوءات. وكان شكري في ممارسته لوظيفة التعري أمام الذات والآخرين، يراها ممارسة للتطهر وتكفيرا عن الذنب وتأكيدا على طبيعة بني آدم الخطاء، أما الذين أنكروا عليه حقه في الاستمتاع بطقوسه الخاصة، فإن كثيرا منهم ربما كان يود لو امتلك ربع جرأة الرجل أو نصف شجاعته.
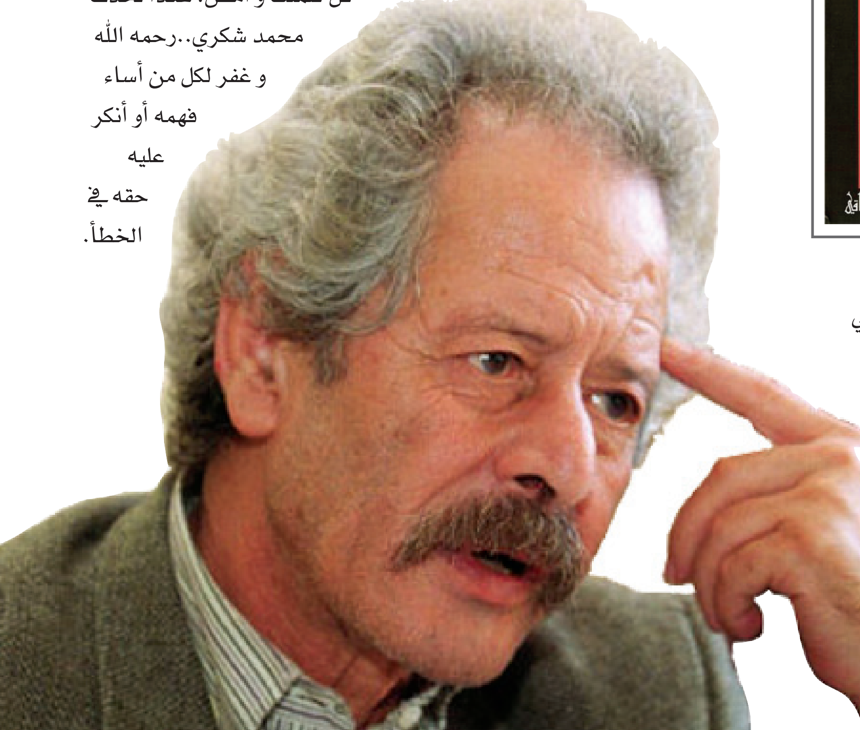
كان شكري ينظر إلى أنوار الغرب المتناهية في أفق طنجة المتعدد، نظر المحب إلى أنوار مماثلة لها على ضفته القريبة حيث يعيش، وكان سيره على حافة الغرب سير العارف للفرق بين التحرر والاغتراب..والسائرون على حافة الغرب في بلاد العرب كثر، أسيء فهمهم و وما يزالون، لكنهم مصرون على قول كلمتهم والمضي.. قل كلمتك و امض، هكذا تحدث محمد شكري..رحمه الله و غفر لكل من أساء فهمه أو أنكر عليه حقه في الخطأ.